أعلام الأدب

بين أرستوفان ويوريبيدز
وبين يوريبيدز والمرأة
للأستاذ دريني خشبة

كان يوريبيدز شذوذاً كبيراً في العصر الذي كان يعيش فيه ... لقد كان ثورة جامحة هدامة لا تدع شيئاً إلا أتت عليه، ولا ترى شيئاً يقدسه الناس إلا سخرت منه واستهزأت به وتهكمت عليه ... وكانت سخريته مع ذلك لاذعة ضارية لا يهمها أن تكون وحدها في جانب وكل أعدائها وهم جمهور الأثينيين أو كثرتهم الساحقة في جانب آخر

وكان الناس حزبين في يوريبيدز : كثرة محافظة من الرعاع ورجال السياسة والتجار يسوؤها أن تهان آلهتها وتستباح تقاليدها فهي ضده وهي تكرهه وهي تنقم عليه وتهزأ به وتسخر منه كما يسخر منها ، ولكن على طريقتها البورجوازية في السخرية والاستهزاء ... وكانت مع ذلك تتخذه هُزُواً وتجري وراء أرستوفان كيما يضحكها عليه ، ويؤلف لها المهازل في ثلبه والطعن عليه والتشهير به وتسفيهه ونهش عرضه وإرسال لسانه في أبيه وفي أمه على السواء ... وقلة مستنيرة مثقفة كانت تعرف ليوريبيدز حقه ، وكانت تؤمن بأنه صاحب رسالة عالية ستعود بالخير الجزيل على الإنسانية في كل زمان ومكان ، وستظل معيناً نميراً سائغاً يقبل عليه الظماء فيروون منه ويعالجون آلامهم ويلتذون فيه الأدب والفن والفكر والجمال والعبقرية

لكن هذه القلة كانت تخشى الرعاع الثائرين على يوريبيدز ، وحق لها أن تخشاهم لأنهم ليسوا رعاعاً جهلة مثل رعاعنا ، بل كانوا رعاعاً متعلمين ، لأنه لم يكن في أثينا في عصر يوريبيدز رجل واحد غير متعلم !

كانت هذه القلة إذن لا تستطيع أن تنفع يوريبيدز العظيم ، لأن الرعاع الذين يؤلفون كثرة الجمهور الأثيني وجدوا لهم شاعراً آخر لا يقل عبقرية عن يوريبيدز ، لكنه شاعر جامد مثلق التفكير محافظ أشد المحافظة على تراث السلف ، فكان يؤلف كوميدياته في الطعن على شاعر القلة المهذبة المستنيرة والنيل منه والإزراء بأدبه وتفكيره ، وكان يجد جمهوراً كثيراً ضخماً يصفق له ويقبل عليه ، ويستزيده من ذلك التضحيك المؤلم المرير الذي كان يعصف بنفس يوريبيدز ؛ وكان ذلك الجمهور يدفع مع كل هذا ثمن التضحيك والسخرية أموالاً جمة ضخمة، فإذا شهد التمثيل خرج نشوان بما سمع ، ثملاً بما رأى ، وراح يجادل في مُثُل يوريبيدز من غير هدى ولا برهان مبين ... إلا هذه النكات التي صنعها فيه أرستوفان ، وصنعها شائكة نافذة حامية ، وإلا هذه المشاهد التي تظهر فيها الخير على السرح ويظهر فيها أقرباء يوريبيدز من الرجال المحترمين متنكرين في زي النساء الساقطات اللائي لا أخلاق لهن ، حتى إذا عرف الجمهور حقيقتهن أغرق في ضحك طويل مرير وانطلق يصفق ويصفر وهو يقبض على الكبود والقلوب من كثرة الضحك وشدته

وكانت النساء في أثينا من حزب أرستوفان على يوريبيدز ، لما كن يتقمن منه تناوله حياتهن الخاصة في دراماته تناولاً لم يكن سائغاً في ذلك العصر ، بل كان تعريضاً للحجب الكثيفة التي كن يعشن وراءها قابعات في الخدور أو مقصورات في الخيام ، مما عودنه منه قلة أدب وقلة حياء وقلة ذوق ، بل قلة في كل مظهر من مظاهر الفضيلة والحفاظ ، وسنة السلف الصالح .

لقد كانت مسز جراندي التي هيمنت طوال العصر الفكتوري على المنزل الإنجليزي وعلى الفتاة الإنجليزية تهيمن بشدة وعنف على المنزل الأثيني والفتاة الأثينية ... ومسز جراندي هي تلك العجوز الشمطاء المتزمتة التي كانت تكره للفتاة الإنجليزية كل تقدم وكل رقي ، وكل ثورة على العرف ، وخروج على التقاليد ، وكانت تفرض سلطانها على البيئة الإنجليزية فتحترم وتطاع احتراماً كلياً وطاعة عمياء . وكان الوسط الإنجليزي يقدس أوامر مسز جراندي ويأخذ بها نفسه ، ومسز جراندي مع ذلك شخص خرافي لا وجود له ، لكنها كانت تمثل التقاليد الإنجليزية الموروثة بحيث لا تسمح لأحد بالثورة عليها . فإذا ظهر أديب مثل يوريبيدز لا يبالي سنة السلف صاحت برعاياها أن حذار ، ثم سلطت عليه السفهاء الجامدين من أمثال أرستوفان يشمئزون عليه ، ويسخرون به ،

لكنها شعبذة لم تكن قط تبلغ عشر معشار ما بلغت شعبذة مسز جراندى فى البيئة الأثينية ... وكان يثير مسز جراندى الأثينية على يوريبيدز ما كان بيديه هو من ثورة على التقاليد التى كانت تفرضها مسز جراندى على قومه ... فلقد كان يتناول فى دراماته العلاقات الشائكة بين المرأة والمرأة ، والعذراء والعذراء والمرأة والرجل ، بل غالى مغالاةً مخيفة فتناول موضوع الميل الجنسى الشاذ عند الذكور فى درامته المفقودة (خريسبُّوس) ، وموضوع الصبوة الزوجية فى مثل مأساة امرأة عزيز مصر مع النبى يوسف فى مأساته هيبُّوليتوس ـ التى سنلخصها للقراء ـ والتى عالج فيها مشكلة الطلاق ، ومأساته المفقودة (ستينبويا) التى عالج فيها الشكلتين معاً .

وكان يوريبيدز لا يستحيى فى معالجته هذه المشكلات أن يستشهد بتجاربه هو ، وأن يطبقها تطبيقاً صريحاً ، ولكنه تطبيق علمى سيكولوجى . كان له الفضل فى ابتداعه ومعاودة الخجل الذى يحف الحقائق بسلاحه ، ولذلك أطلقوا على يوريبيدز (ابن القديم) إشارة إلى المسرحى العظيم هنريك إبسن الذى نقل الرواية التمثيلية من عالمها الرومانتيكى إلى عالم الحقيقة والواقع فى عصرنا الحديث ...

لقد كان يوريبيدز شذوذاً كبيراً فى العصر الذى كان يعيش فيه ، ولقد كان كما قدمنا ثورة جامحة على تقاليد عصره ، ولن ينسى التاريخ يوم جال أرستوفان وصال ، وراح يستصرخ نساء أثينا عليه ، ويثرى بينهن العداوة والبغضاء ، ويهتف بهن أن يثأرن من يوريبيدز لشرفهن وحفاظهن وتقاليدهن يوم استباحها جميعاً فى مأساته (ميديا) تلك المأساة التى كانت نجاحاً رائعاً ليوريبيدز ؛ بل كانت تكفى وحدها لتخليد الاسم الذى يتشرف بأنه اسم مؤلفها . ومع ذلك فقد انتصر الجمود عليها ، وظفرت الرجعية الذميمة بها ، فسقطت سقوطاً شنيعاً بعد العرض الأول

قال جيته : « لا أدرى إذا كان أى مسرحى فى أية أمة خليقاً أن يحمل نعلى يوريبيدز فيقدمها إليه ! ! »

كلمة ساخرة من جيته ! ! وقد أرسلها فى أعداء يوريبيدز ، وناقدى دراماته وخص بها قبل كل شىء عدوه الأكبر أرستوفان لكن أرستوفان ، وإن يكن أديباً رجعياً شديد المحافظة على تراث السلف الصالح ، إلا أنه كان موضع إعزاز أفلاطون . وأفلاطون لا يجعل أحداً موضع إعزازه شيئاً . فقد كان يشهد لأرستوفان أنه وحده الذى عرف قيمة الحياة . فضحك ثم ضحك ثم ضحك . وجذب إليه الناس ليضحكهم عليها وعلى الحقيقة وعلى يوريبيدز !

والآن ، ما هى ميديا هذه التى أحفظت نساء أثينا على يوريبيدز والتى استغلها أرستوفان فى إعلان الحرب على الرجل الذى ألهمه فنه إذ هو طفل أو غلام فى السادسة عشرة حينما كان يذهب إلى المسرح فى حرقة وتشوف للتمتع بدرامات يوريبيدز ؟ إنها مأساة عاصية تذيب نياط القلوب بما حشده فيها يوريبيدز من العواطف المتضادة المتنافرة ، وألوان القسوة التى لا تنورع المرأة من ارتكابها فى سبيل لذتها وحبها . إنها مأساة مشتقة من خرافة جاسون التى لخصناها للقراء منذ عامين . ثم هى حلقة مكملة لمأساة أخرى نظمها يوريبيدز فى التاسعة والعشرين وسماها : بنات بلياس

وجاسون ابن ملك تساليا هو بطل الدراستين ، وقد كان له عم يدعى بلياس طمع فى الملك واستعان على أخيه بجيش أجنبى فخلعه وتولى هو مكانه . ثم قبض على الملك وزوجه وأقام عليهما رقابة شديدة صارمة . وأرسل الملك المخلوع ولده الطفل جاسون إلى السنتور الخرافى شيرون ليعلمه الفروسية . حتى إذا شب ذكر له ما كان من عمه مع والديه ، وأهاب به أن يثأر لهما ولنفسه وأن يخلع عمه ويتربع هو على العرش لأنه به أحق . وعاد جاسون بعد إذ استوى عوده وزوده أستاذه بالنصائح الغالية ، وأوصاه بمكارم الأخلاق ، وأن يحترم كلمته ويبر بوعده . وقد فوجئ بلياس الظالم بحضور ابن أخيه ، وكانت نبوءة قد حذرته منه لأنه سيكون سبب قتله ، فلما طلب إليه جاسون أن يخلى له مكانه من الملك عمد بلياس إلى الحيلة ، فانتهز فرصة غناء المطربين ، وإنشاد المنشدين فى محفل كان قد أقامه لعقر القرابين للآلهة ، ولفت انتباه جاسون إلى قصة الفروة الذهبية التى يحتفظ بها الملك إيتيس — ملك البربر ووالد ميديا — وحرضه على الحصول عليها . واستثار فيه نخوة الشباب وخيلاءه، فوعده جاسون بها. وبعد مجازفات وصعاب وصل جاسون إلى الملك إيتيس حيث لقيته ميديا فمالت إليه ؛ بل جنت به ، حتى إذا عرفت ما جاء له وعدته بالمساعدة ، وكانت تعرف من فنون السحر ما تتغلب به على كل محال . فأعدت له مخدراً

أدناه من التنين الهائل الذى كان يحرس الفروة الذهبية فاستغرق فى سبات عميق . وذبحه جاسون وحمل الفروة الذهبية وفر بها مصطحباً ميديا وأخاها الصغير أبسيتروس حتى إذا كانوا عند البحر ركبوا فى السفينة التى أعدها جاسون لهذا الغرض - وكان اسمها الآرجو — فأقلعت بهم تحت جنح الظلام

وفى الصباح اكتشف الملك إيتيس الأمر فجن جنونه لفرار ابنته ، ثم لأنها صحبت معها ولى عهده وولده الأوحد أبسيتروس ، ثم لضياع كنزه الثمين الذى لا يقدر بملء الأرض ذهباً ... فيعد سفينة عظيمة ويبحر فى نفر من صفوة بحارته وأجناده فى إثر الآرجو ... وتمضى بضعة أيام ، وتدنو سفينة الملك من الآرجو حتى تكاد تلحق بها ، فيشتد ذعر ميديا ، ولا تصغى إلى توسلات أبيها الذى تعتقد أنه معذبها أشد العذاب إذا وقعت فى يديه أو استسلمت إليه ... وهنا تذبح أخاها وفى العهد وتقطعه إرباً ثم تلقى فى اليم وراء الآرجو بالقطعة منه وراء القطعة ، فيضطر الملك البائس إلى انتشال أشلاء ولده باكياً متفجعاً ، فتبطئ سفينته وتغيب الآرجو عن الأبصار وتفلت ميديا وجاسون

لقد وعد جاسون ميديا أن يتزوجها إذا هى ساعدته فى الحصول على الفروة الذهبية ، وقد فعلت ، فلما آب إلى وطنه بنى بها وعاشا فى رغد وطمأنينة ، ورزقا غلامين جميلين

هنا تبدأ الدرامة الأولى (بنات بلياس) .. يظل جاسون زماناً لا يستطيع الحصول على العرش ، ويضم إليه أبويه المحطمين الهرمين ، فترق لهما ميديا ؛ وبصنعة جميلة من سحرها ترد عليهما شبابهما فيرتدان أجمل مما كانا فى شرخ صباهما ؛ ويتسامع الناس بما كان من ذلك ، وتعلم بنات بلياس اللائى كن قد أبدين السخرية بميديا وأشعرنها احتقارهن ، بما تم لعمهن وزوجته من ارتدادهما إلى الشباب بسحر ميديا ، فيأخذن فى ملاطفتها ، ثم يسألنها أن تعيد إلى أبيهن شبابه حتى تطول أيامه فى الملك ، وهنا تشير عليهن ميديا أن يذبحن الملك بعد أن ينام ثم يقطعنه إرباً حتى تحضر هى فترده إلى الحياة كما ترد إليه شبابه وتخلع عليه بُرْد صباه ... ويطيعها بنات بلياس فيقتلن أباهن .. وبذلك يتخلص منه جاسون .. ويصبح البنات مجرمات فى نظر الشرع والقانون؛ لكن جاسون يستطار من شناعة ما تصنع ميديا ، فلقد ذبحت أخاها دون أن تأخذها فيه رأفة ودون أن يتحرك قلبها لتوسلاته وعبراته ، ثم راحت تمزق بدنه وتلقى بأشلائه فى اليم ... وهى اليوم تصنع مثل الذى صنعت بالأمس فتحرض بنات عمه على تلك الفعلة الشنعاء ...

لقد تبدلت نظرة جاسون ، ورفع عن بصره غطاؤه ... لقد كره ميديا !

ثم تبدأ الدرامة الثانية ، التى هى مفخرة يوريبيدز ، والتى سماها (ميديا) ، والتى أذلت نساء أثينا وأقمأتهن ، والتى ألف من أجلها أرستوفان مقالته (محاكمة يوريبيدز) أو Thesmo-phoria-zusæ

يفر جاسون مع زوجته وولديه إلى كورنثه حيث يحل ضيفاً على ملكها كريون العجوز الشيخ الذى لا نسل له إلا فتاة بارعة الجمال ... ويكرم الملك مثوى ضيفه الذى طبقت شهرة شجاعته الآفاق ثم يسر إليه أنه يرغب فى أن يتخذه ولداً ويزوجه ابنته على شرط أن يقطع ما بينه وبين زوجته ميديا الساحرة ابنة ملك البرر ... ويتردد جاسون ثم يقبل عرض الملك ، لكنه يبقى الأمر سراً بينهما حتى يدخل بزوجته الجديدة ، ثم يرسل الملك بعض جنوده للقبض على ميديا التى تكون قد عرفت كل شىء ، وقهرها على مغادرة كورنثه هى وولداها . . وتحتال ميديا فيمهلها الملك يوماً واحداً حتى تأخذ أهبتها للسفر ، ثم تحتال فيلقاها جاسون حيث يفرغ كل ما فى سريرته للآخر ، ويكلمها جاسون فى برود وتكلف ، وتخاطبه ميديا فى ازدراء وخشونة وأسلوب كله برم وسأم ... ثم يلقاها مرة أخرى فتبدو كأنها غفرت له كل شىء أو كأنها نسيت كل شىء ، ثم تسأله أن يذهب هو وولداها إلى زوجته الجديدة يهديتها التى يسعدها جداً أن تتقبلها من امرأة محطمة كسيرة القلب مبيضة الجناح ، فيهش جاسون ويذهب بالهدية وهى ثوب من دمقس وحرير منتل فيقدمها لزوجته التى تفرح بها ... لكنها ما تكاد تلبس الثوب حتى تحس بإبر الموت تخزها وتنفذ بالآلام المبرحة إلى نخاعها.. أوه!.. إنه ثوب سموم احتفظت به ميديا لمثل هذا اليوم ! ! لقد ثأرت ميديا لنفسها كما ثأرت لكبريائها .. لقد ماتت الزوجة التاعسة من برحاء الألم ! ... لكن ميديا لا تكتفى بهذا الثأر يقع على فتاة بريئة أو قد تكون بريئة ... إنها تذهب فى ثأرها إلى أبعد حدود القسوة البشرية وأشقها ... لقد قتلت أخاها أبسيتروس ومزقته إرباً ورمت بأشلائه فى البحر لتعرقل أباها من أجل جاسون وفى

سبيل حبه ... فلماذا لا تقتل ولديها نكاية فى أبيهما ، ومبالغة فى تمزيق قلبه ؟! ... يا للثأر ؟ !

ويعلم جاسون بما انتوته فيسارع لإنقاذ الطفلين ... ولكن! وا أسفاه ! لقد ذبحتهما الشقية ! وها هو ذا جاسون يقف على جثتيهما باكياً محطوم القلب مشبوب الجوانح بالحزن الذى ليس مثله كمد ولا حزن

وفى هذه الثورة تبتسم ميديا ... وتزدرى جاسون ... ثم تركب تنينها السحرى فيطير بها فى الفضاء تاركة وراءها الزوج الشقى والجثتين الحبيبتين !

ثارت الأثينيات على يوريبيدز بعد هذه المأساة ثورة جامحة لأنه صرح فيها بأن ميديا صورة من بنات حواء جميعاً ، وأنه ليس فيهن من يفضلها قط ، وأن كل امرأة تصنع من أجل لذتها أسوأ مما صنعت ميديا التي خانت أباها فى كنزه ، وذبحت أخاها وولى عهده ، وفرت مع عدوه ، ثم مكرت ببنات پلياس فهيأت لهن قتل أبيهن ، ثم لم تتورع من أن تقتل طفليها غير آبهة ببكائهما الذى كان يفتت الصخر لا الكبود وذلك لتتم لها اللذة المجرمة الفتاكة ، لذة الانتقام ، كما تمت لها خلال الآلام والنكبات لذة الحب ...

وكان يوريبيدز بارعاً فى جميع دراماته التى شنّ بها حربه السيكلوجية على المرأة والتى سنعرضها فى الفصول التالية ، فأنت لا تقرأ له دراما من تلك الدرامات إلا وتنتهي منها إلى الرثاء للمرأة مهما تكن شريرة عاتية ، بل ربما أعجبت بهذه المرأة الشريرة العاتية وشعرت بالعطف عليها ، وتمنيت لو كانت خاتمتها خيراً لولا ذلك الأسلوب البارع الذى يسلسل فيه يوريبيدز حوادث مأساته ، والذى يقتضى تلك الخواتيم التى لا يكون محيص منها ما دامت الحوادث تتسلسل هكذا !

لقد جعل أرستوفان من يوريبيدز موضوعاً لكثير من مهازله . وقد حفظ لنا الأثر ثلاثاً من هذه المهازل كلها عن يوريبيدز ، وقل أن تجد لأرستوفان مهزلة غير هذه الثلاث لم يتعرض فيها ليوريبيدز بنكتة أو غمزة أو سخرية ... وكان يوريبيدز يتألم أشد الألم وأبلغه لسخرية الشعب به ، وتهكمه على أفكاره ، حتى إذا طفح الكيل ، لم ير بداً من الهجرة إلى مقدونيا كما سيمر بك .

دمرقش مخيب

العـــالم

للشاعرة أيلا هويلر ولكوكس

للآنسة الفاضـــلة « الزهرة »

يسير الطير على هينه ، ويمشى على رُود لطيته

ويقدّ الشر فى سيره الحثيث على أوفاز ، ويهتلك فى عدْوه ، كميش الإزار ، فتتزلزل الأرض من وقع فيالقه الشهباء ، وتسمع الجلبة والقعقعة فيقال :

إن العالم يزداد انتهاساً فى المعاصى والسيئات ، ويوغل فى ارتكاب كل محظور ومحرم ...

* * *

ولكن هذا ليس بصحيح ، لأن الفضيلة تتربث فى مسيرها وتتئد فى خطْوها وتنثر بذرها بيد التمهل والترزن

فى حين ينفض الإثم أجواز الأمصار مبلغاً أوزارة التى تستفيض هيمتها المنكرة فى الأقطار ، ويطير ذكر سيئاتها الفاضحة فى الآفاق ، فتنصت لها الأصداء ، وترجمها الأنجم ...

* * *

وكما أنه ليس ثمت ريب فى أن الأرض تتحرك وتدور حول الشمس المضيئة

كذلك نعلم أنه لا بدّ أن يتمّ الله تعالى أمره الذى يقضى : بأن يُصلح شأن جميع الجنس البشرىّ

* * *

وعلى الرغم من جيشان أمواه الشرّ ، وارتفاع هديرها ، وغزارة طموّها ، فإن حميد الحقّ الذهبىّ يضج بسرعة ، وتسطع أنوارُ حافره الباهرة ، وتكسف بسناها شموس الماضي فترتفع بأفكار الناس إلى كبد العلاء وتصيرها أرق مما كانت ...

* * *

إن الذى يسير موغلاً قد يقرأ هذه الحقيقة التى أرددها قائلة : اعلم أن الإثم يتجوّل راكبا عربة ترتفع لعلعة عجلاتها الصاخبة فى الحزون والسهول

فى حين يذرع الصلاح فراسخ السماء ، ويطوّر ونته حين يطلّ من محرابه النقىّ على أرض الشقاء ، متألقاً تألق النجمة الزهراء

فيتوقل العالم كل يوم فى مدارج السمو والارتقاء ؟